وبديهي أن مثل هذا الخوف الذي لا يتسبوغ موضوعياً ليغدو سوياً، ليس إلا قشرة سطحية للحالة، أو عرضاً من أعراضها، بمعنى أنه يشرح ما يقع تحته كجذر له.

دعنا نثبت بالشواهد صراعها مع المجهول وخوفها من أمور لا تملك هي نفسها أن تتبينها أو أن تقدم لها سبباً شارحاً. تقول الشاعرة في قصيدة «أنا وحدي مع الليل»، وهي من الديوان الأول:

في الليل، إذ تهبط روح الظلام،
مرسلة فيه الرؤى الهائمة،
يطيف بي في يقظتي الحالة
طيف، ولكن ما له شكلُ
يحضنه جفني، ولا ظل،
وإنما بحسي الملهم،
أعيد شيئاً ملغزاً مبهم
كأنما طلمسه الليل
وكلما رفعت في وحدتي
له مصابيحي انزوى في القتام.

ثم تتابع القصيدة تصوير هذا المجهول كما لو كان «روحاً غير منظور». وبالتأكيد، ليست هذه هي البرهة الوحيدة التي تتعامل فيها الشاعرة مع المجهول، إذ الحقيقة أن هذه الحال يغلب أن يجدها القارىء لشعرها في الكثير من ذلك الشعر. ومما هو جدير بالاهتمام هنا أن البيت الأخير من هذا المقبوس مؤشر إلى عملية الصراع الداخلي بين المقموع الخفي وبين الطاقة الضابطة التي تحاول أن ترده إلى الأسفل كلما حاول أن ينهض من الأعماق لكيما يصل إلى سطح الوجدان والشعور. إن عليه أن «يسجن»، دوماً، في «غيهب» الباطن الدفين. وهذا يعني أن التثبت على الحالة الاضطرابية المعكورة إنما يتصف بدرجة عالية من الشدة، وأن شدة التمسك بانبغاء التواري هي ما يحول دون خروج «اللغز» المنبهم إلى النور، أو إلى وعي الشاعرة نفسه، لأنه بخروجه ينخفض التوتر.

وهذا الصراع بين المقموع والقوة الذاتية الكابتة لا بد وأن يخفي وراءه صراعاً أشد منه. فالحقيقة أن كافة مظاهر سُوء التكيف التي تبديها الشاعرة هي مظهر من مظاهر صراع هو بمثابة راقـة تحتانية تؤسس الخوف الظاهر على السطح، كما أنه قد يمثل طبقة تترسخ تحت مضمون نفساني آخر أقل منه عمقاً، وإن كان أكثر أهمية أو خطورة.

فالنقطة العامة والظاهرية في جملة معاناتها ليست سوى عدم التكيف مع البيئة التي تمني دوافعها بالاحباط. ولذا فإنها تتخذ موقف الرفض من هذه البيئة، ولكنه – غالباً – رفض صامت مبطن، رفض سلبي انسحابي، هروب إلى الطبيعة، يأتي نتاجاً للعجز عن مواجهة ثقل البيئة وشدة هيمنتها. إنها لا تجرؤ على المجاهرة برفض فعال، فلا يتمثل رفضها تمثلاً سلوكياً إلا سلبياً، أي على شكل خروج على المجتمع، ولكن إلى الطبيعة حيث الدعة والرفه والأمن، وحيث تخفيض التوتر الجواني القابض. فليس صدفة